

أَبُو عُبَيْدَةَ



1. يُحَكِّي أَنَّهُ فِي زَمَنِ اشْتَدَّتْ فِيهِ الْمِحَنُ، وَتَكَالَبَتْ فِيهِ الذِّئَابُ عَلَى أَرْضِ الزَّيْتُونِ "فَلَسْطِينُ الْجَرِيحَةِ"، كَانَ الْقَوْمُ يَنْتَظِرُونَ بُشْرَى، أَوْ كَلِمَةً تُعِيدُ إِلَيْهِمُ الْعَزِيمَةَ وَتَشُدُّ مِنْ أَرْهِمِ، وَقَدْ كَانَتْ الْقُلُوبُ وَاجِفَةً، وَالْعُيُونُ شَاخِصَةً نَحْوَ الْأُفُقِ، وَالظَّلَامُ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمَسَ نُورَ الْحَقِيقَةِ.

2. فِي غَمْرَةِ ذَلِكَ الصَّمْتِ الْمُهِيبِ، ظَهَرَ فَارِسٌ لَيْسَ كَبَاقِي الْفُرْسَانِ. لَمْ يَكُنْ يَزْكِبُ جَوَادًا مُطَهَّمًا، بَلْ كَانَ يَمْتَطِي صَهْوَةَ الْكَلِمَاتِ،

وَسِلَاحُهُ بَيَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين. كَانَ هَذَا الْفَارِسُ مَجْهُولُ الْمَلَامِجِ، قَدْ عَصَبَ رَأْسُهُ بِكُوفِيَّةٍ حُمْرَاءَ كَانَتْهَا رَايَةُ نَصْرِ، وَتَلَثَّمَتْ بِقِطْعَةٍ فُماشٍ أَخْفَتْ وَجْهَهُ، لَكِنَّهَا لَمْ تُخَفِ حِكْمَتَهُ مِنْ بَرِيقِ عَيْنَيْهِ.

3. كَانَ إِذَا وَقَفَ أَمَامَ النَّاسِ، هَذَا الضَّجِيجُ، وَأَصْغَتِ الْأَذَانُ. لَمْ يَكُنْ يَصْرُخُ، بَلْ كَانَ يَنْطِقُ حُرُوفًا كَانَتْهَا الرَّصَاصُ فِي دَقَّتِهَا، وَكَانَتْهَا الْبَلْسَمُ فِي أَثَرِهَا عَلَى قُلُوبِ الصَّابِرِينَ، وَكَانَ يَرْفَعُ إصْبَعَهُ وَاثِقًا، فَيَتَحَدَّثُ بِلُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ فُضْحَى، تُذَكِّرُ السَّامِعِينَ بِخُطْبِ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْفُرْسَانِ وَالشُّعْرَاءِ.

4. يَسْأَلُ الْأَطْفَالُ آبَاءَهُمْ: "مَنْ هَذَا الْفَارِسُ الْمُثَلَّمُ؟ وَلِمَآذَا يَخْشَاهُ الْأَعْدَاءُ رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَحْمِلُ سَيْفًا وَلَا يَمْتَطِي حَصَانًا؟" فَيُجِيبُونَهُمْ: ". إِنَّهُ يَعْلَمُنَا أَنَّ الْقُوَّةَ لَيْسَتْ فِي الْعَضَلَاتِ فَحَسْبُ، بَلْ فِي الْعَقْلِ الرَّاجِحِ وَاللِّسَانِ الْفَصِيحِ الَّذِي لَا يَزْتَجِفُ رَغْمَ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، فَسِلَاحُ الْحَقِّ أَحَدٌ مِنَ السُّيُوفِ، وَهَذَا الْفَارِسُ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالصِّدْقِ، فَالْكَلِمَةُ الْحُرَّةُ عِنْدَ الظَّالِمِ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ السِّلَاحِ، لِأَنَّهَا تُعَرِّي زَيْفَهُ، وَتَهْدِمُ مَا بَنَاهُ مِنْ أَوْهَامٍ فَوْقَ رِمَالِ الْخَدِيعَةِ، فَتُوقِظُ هِمَمًا كَانَتْ نَائِمَةً. لِهَذَا يَخَافُ مِنْهُ الْعَدُوُّ ".

5. ظَلَّ الْفَارِسُ يَظْهَرُ كُلَّمَا اشْتَدَّ الْخُطْبُ، يَرْفُ الْبَشَائِرَ، وَيُوَاسِي الْجِرَاحَ، وَيَقُولُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ: "إِنَّهُ لَجِهَادٌ... نَصْرٌ أَوْ اسْتِشْهَادٌ". صَارَتْ كَلِمَاتُهُ وَقُودًا لِلْهِمَمِ، وَصَارَ لِثَامُهُ رَمْزًا لِلْعِزَّةِ الَّتِي لَا تَنْحَنِي.

6. وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَعَرَفَ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ أَنَّ خَلْفَ ذَلِكَ اللَّثَامِ رَجُلٌ نَذَرَ صَوْتَهُ لِيَكُونَ سَيْفًا لِأُمَّتِهِ ضِدَّ أَعْدَائِهَا، وَاسْمُهُ الَّذِي رَدَّدَتْهُ الْأَلْسُنُ وَالْجَوَارِحُ: "أَبُو عُبَيْدَةَ، وَكَانَ اسْمُهُ الْحَقِيقِيُّ: حُذَيْفَةُ الْكُحْلُوتِ".

كتبه: الأستاذ معجوج حسام



القاموس اللّغوي (شرح المفردات الصعبة):

- **المِخَن:** المَصَائِبُ وَالشَّدَائِدُ.
- **تَكَالَبَت:** تَجَمَّعَت لِلْهُجُومِ بِشَرَّاسَةٍ.
- **الْقُلُوبُ وَاجِفَةٌ:** خَائِفَةٌ وَمُضْطَرِبَةٌ.
- **جَوَادًا مُطَهَّمًا:** حِصَانًا تَامَ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ / فَرَسًا أَصِيلًا.
- **يَمْتَطِي:** يَرْكَبُ.
- **صَهْوَةٌ:** مَوْضِعُ الرُّكُوبِ عَلَى ظَهْرِ الْحِصَانِ.
- **أَشَدُّ وَطْأَةً:** أَقْوَى تَأْثِيرًا.
- **وَقُودًا لِلْهَمَمِ:** دَافِعًا قَوِيًّا يُشْعِلُ الْعَزَائِمَ وَيُقَوِّي الْحِمَاسَ.

